«يسنين» ... والغربة !

بقلم محمد كامل عارف

لن آسف ، لن أندب ، لن أبكي
فكل شيء سيمضي ،
مثل غيمة فوق أشجار تفاح بيضاء .

***

كثير من الشعراء ادعوا ، انهم يكتبون الشعر بدم قلبهم .. ولكن الوحيد الذي فعل ذلك حقا ، هو الشاعر الروسي الشاب ، الجميل جدا : سيرجي يسنين .

ففي احدى ليالي ديسمبر ، اذ لم يستطع يسنين ان يعثر على حبر للكتابة في غرفة بفندق (انجلترا) في لينينغراد ، جرح معصم يده، ليكتب بدمه ثمانية ابيات من الشعر ، كانت هي اخر ما كتبه في حياته. فقد شنق نفسه بعدها بيومين .

ان اسم سيرجي يسنين مجهول تقريبا في بلداننا العربية ،بالرغم من انه يعتبر ارق شعراء روسيا في مطلع هذا القرن . وقد قام الاتحاد السوفياتي هذه السنة احتفالات ضخمة ، بمناسبة مرور ٧٥ عاما على ميلاده . وربما سيستغرب كثير من الذين حضروا اللقاءات والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، التي اقيمت لتخليد ذكرى يسنين ، عندما يقرأون السطور التالية ، التي تتصدر مقدمة لطبعة اشعار يسنين ظهرت في موسكو سنة ١٩٢٩ :

(بمقدار ما ستحرز مزارعنا التعاونية من نجاحات اكبر ، سيختفي بسرعة اسم يسنين في طي النسيان . ان روح الجماعية المتلاحمة وفردية اشعار يسنين ، ضدان لا يلتقيان . ولكن اشعار يسنين ما تزال الان طرية ، كندبة طرية على جسدنا الاجتماعي .)

وفي الحقيقة ان اسم يسنين بقي لاعوام طويلة يثير نوعا من الاستهجان عند كثير من الادباء والناس السوفييت . واعتقد اننا لا نستطيع ان نلوم احدا على ذلك . فالانتحار نوع من الانانية ، كما يقول همنغواي نفسه . ثم ان يسنين آثر ان ينتحر عندما كانت روسيا تعيش على كلمات التشجيع بدل الخبز الذي لا تجده . كانت جيوش التدخل العالمية ، التي ارسلها الرأسماليون الانجليز والالمان والاميركان،لتقضي على اول جمهورية للعمال والفلاحين قد طحنت روسيا من جميع اطرافها، ودمرت ما ابقته فيها الحرب العالمية الاولى من خير زهيد .

ولم يشأ يسنين ، ـ ولنقل لم يستطع ، ـ ان يعطي روسيا الجائعة المحاصرة آنذاك الاغاني ـ الخبز التي تحتاجها . وربما هنا يكمن سر انتحاره .

* * *

كان يسنين ، الذي ولد في سنة ١٨٩٥ ، قد جاء الى بيتروغراد، عاصمة روسيا الامبراطورية من اعماق الريف الروسي . وكتب وقتها الشاعر الروسي المشهور بلوك ، مصورا يسنين في مذكراته : فابلت اليوم يسنين . شاعر فلاح . عمره ١٩ سنة . اشعاره طرية ، نظيفة ، منغمة وغنية .

واستطاع هذا الشاعر الفلاح ، باشعاره الريفية العذبة وبانافته ووسامته ان يلمع بسرعة في صالونات العاصمة الارستقراطية ، وان يثير في نفس الوقت اهتمام ادباء ماركسيين ، مثل غوركي وبلوك .

ولكن لسوء حظ يسنين انه وصل متأخرا ، او مبكرا اكثر مما ينبغي . (فماذا يفعل الشعراء في زمن المحنة ؟) . لقد حدثت ثورة

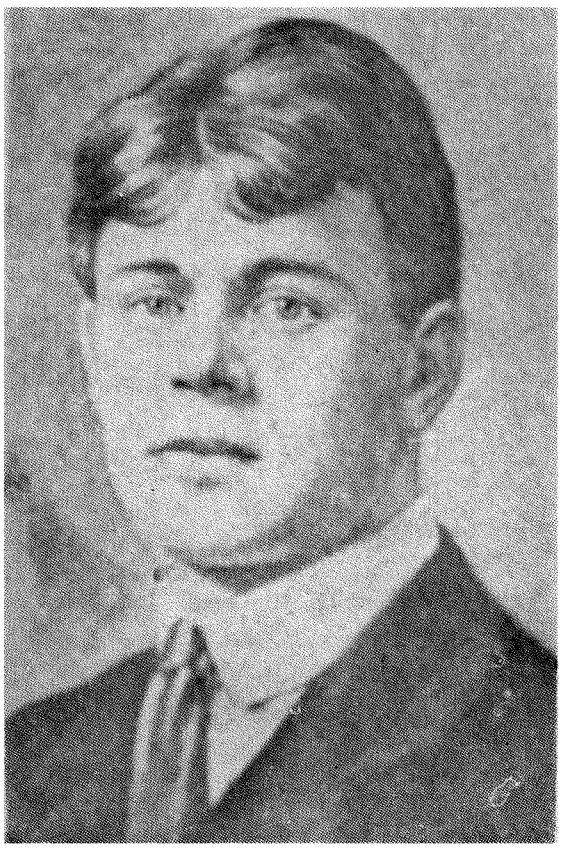

سيرجي يسنين

***

اوكتوبر بعد وصوله بيتروغراد بسنتين. وفي زمن الثورة يفقد الشعراء عادة تاج النبوة ويتحولون الى مغنين للشعب . وقد حاول يسنين ان يغني للثورة وللشعب . ولكن يبدو ان تربيته الفلاحية الدينية قد اوقعته في سوء الفهم . فبدلا من ان ينشد مثل ما يبكوفسكي (مواكب القطارات المحملة بالبروق) و (الكهرباء والبخار .. والكلمات الرياضية ذات الاقدام المرنة) ، كان يسنين يكتب قصائد لثورة الطبقة العاملة بعناوين دينية وبتعابير من التوراة : عيد التجلي ، الطبل السماوي ، كتاب الصلوات الريفي ، مروج الاردن .. الخ .. كان يسنين يهتف :

لتعش الثورة ،
في السماء وعلى الارض .

او يكتب : قلبي ـ شمعة نضاء لعيد قيامة الجماهير وللكومونات

او : السماء مثل جرس كنيسة .
القمر مثل لسان .
الوطن امي .
وانا بولشفيك .

وفي الحقيقة كان يسنين نفسه يعرف انه لا يستطيع ان يكون بولشفيكا ، بالرغم من ادعائه مرة بانه لا يدخل حزب البولشفيك لكونه أكثر يسارية منهم . ولعله لم يبالغ في دعواه هذه . فهد كثير

من المثقفين البورجوازيين الصغار ما كان ليستطيع الان يقف على يمين البولشفيك أو على يسارهم . وعندما كان يسنين يخنار أن يقف على يسارهم ، كان يجد نفسه جالسا يقرأ الشعر للعاهرات .

ويسخن الفودكا مع اللصوص والمشردين .

* * *

وآثر يسنين مثل كثير من المثقفين البورجوازيين الروس انذاك أن يغادر روسيا . وكان هذا سوء حظ أشد يقع فيه . فقد تزوج (النار الملتهبة) ايزادورا دنكان ، الراقصة الاميركية ، التي كانت تخض رجال ذلك العصر . وغادر معها الى أوروبا ، ثم الى الولايات المتحدة الاميركية. وانه لطريف ان نتطلع الى صور يسنين الفوتوغرافية في اوروبا . حيث يبدو فيها بانافات رجال العشرينات المفنـــاجة ، الانثوية تقريبا . ولكن يسنين لم يمكث طويلا في (مملكة الضجر) ، كما أطلق على اميركا . وربما صحيح ما قاله احد النقاد الغربيين ، من أن ايزادورا دنكان وامريكا حطما هذا الفلاح الروسي . ولعل قصيـــدة يسنين المـــريرة المشهـــورة : « انت لا تحبينني . انت لا تعطفين علي . » موجهة الى ايزادورا :

انت لا تحبينني . انت لا تعطفين علي .
ألست حلوا ولو قليلا ؟
انك تنتفضين رغبة ، ودون ان تتطلعي في وجهي ،
يداك تسترخيان على كتفي .

* *

ايتها الشابة ذات التكشيرة الشهوانية .
انا لست رقيقا معك ولا فظا .
خبريني ، كم من الرجال داعبت ؟
كم من الايدي والشفاه مسحت ؟

* *

انا أعرف : لقد مروا جميعا كالظلال ،
دون أن يلمسوا نارك .
لقد جلست في أحضان الكثيرين .
وها أنت تجلسين على ركبتي الان .

* *

عيناك نصف مغلقتين
وانت تفكرين بشخص اخر
أنا ايضا أشتهيك ،
من دون أن أحبك كثيرا .

* *

لا تسمي هذا الرماد حظنا .
هذه العلاقة الحمقاء ، السريعة الاحتراق ،
فكما التقيت صدفة بك .
سأغادر بهدوء وأنا ابتسم .

* *

وانت سترحلين أيضا في طريقك ،
بعشرين أيامك البائسة .
ولكن لا تلمسي ، الذين لم يعرفوا القبلات .
لا تغوي ، الذين لم يحترقوا .

* *

وعندما ستمرين في الطريق ،
تثرثرين مع اخر عن الحب .
ربما سألتقي بك ،
في تجـوالي من جـديد .

* *

ستشدين نفسك الى كتف الاخر .
وتقولين بصوت منخفض ،
وانت منكسة الرأس قليلا : مساء الخير .

وسأجيبك : مساء الخير ! Miss ! (!)

* *

ولن تهتز روحي .
لن أرتجف .
فمن أحب مرة ، لن يستطيع بعد أن يحب .
من اللهب مرة ، لن تستطيعي أن تحرقيه .

* *

لقد عاد يسنين الى وطنه اكثر خيبة مما غادره ، والمصيبة انه يتطلع الاونة الى روسيا القديمة ـ الجديدة بعيون اجنبية . كـان الامريكان قد اوقفوه عند حدود الولايات المتحدة ، باعتباره أحـــد مواطني روسيا الحمراء . لقد ماتت روسيا القديمة على الخريطة . وفي جواز سفره ، وفي نفسه ايضا . أصبح لا يبالي بالحقول ولهب المواقد الروسية ، ولا حتى برنين أجراس الزحافات :

يكفي يا روسيا الحقول .
يكفي جرجرة محاريثك القديمة .
انه ليؤلمني ، كما يؤلم أشجار الحور والبتولا ،
رؤية فقرك .

ان يسنين يرى الاونة :

عبر الصخور والفولاذ ،
تحت ضوء القمر المسلول ،
قوة موطني الحقيقية .

ولكـن :

لست أدري ما الذي سيحدث لي ؟

---

١ ـ كما هي موجودة في النص الاصلي بالانجليزية .

شعـــر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتهـا	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

ربما لن أصلح للحياة الجديدة ؟
وسيظل هذا السؤال حتى النهاية .

لقد اختار يسنين ، اخر شعراء القريـــة ، ـ كما كان يسمي نفسه ـ ، ان يذهب الى قريته القديمة قبل انتحاره بسنة تقريبا . ولسنا ندري ان كان قد حاول بعودته الى القرية ان يتطلع ، ـ كمـا يقول احد النقاد الروس ـ الى الحياة الجديدة في وجهها ، ويتفحص نفسه على ضوئها ، أم أنه بعودته الى مكان ميلاده حاول هروبا جددا، أكثر انواع الهروب استحالة : العودة الى الطفولة . ان علمـــاء النفس يتعرفون عادة انماط هذا الهروب المستحيل في وجوه مرضاهم الذين يبدأون يتلعثمون مثل الاطفال في نطق أحرف الهجاء .

على أية حال ، ومهما كانت دوافع يسنين في عودته الى قريته فقد كانت حصيلتها سلبية جدا . فبدلا من الصورة التي في ذهنـه عن قريته الهادئة ، حيث نجلس امه على دكة سلم بيتها الخشبي لتطعم الفراخ ، وجد يسنين عـالما اخر . بدلا مـن بريق الصلبان النحاسية على الكنائس الروسية البيضاء ، كانت الشرائط الحمر ترفل عـلى قبعات جنود الثورة الفلاحين . وبدلا من (كتاب الصلاة) ، كـانت أخته تقرأ في (رأس المال) ، وبدلا من الايقونة في زاوية البيت ، تقوم صورة لينين . والافظع من ذلك كله كان الفلاحون الشباب يغنون اغاني اخرى لا يعرف يسنين كيف يكتبها ، او ربما لا يريد .

ان يسنين يخاطب نفسه في قصيدته « روسيا السوفياتية » :

لقد أخـذت تذبـل قليلا .
الشباب الاخرون يغنون أغاني أخرى .

* *

آه يا وطني لكم أصبحت أنا غريبا .
ان خداي الفائرين يتوردان بخجل يابس ،
فلغة مواطني أصبحت غريبة عني .
وأنا في وطني مثل أجنبي .

لقد تأكد يسنين نهائيا في (روسيا السوفياتية) ان :

شعري ليس ضروري هنا
اجل .. وربما انا نفسي لم أعد ضروريا .

* *

وحتى تكم ل الكلمة ، ـ كما يقول المسيح ـ . ولكي يصبح الشعر ضروريا ، كان ينبغي ان يتعمد بالدم . ولقد كانت ابيات يسنين الاخيرة مكتوبة بالـــدم :

وداعـا يـا صـديقي .
وداعا بدون كلمات وبدون أن نشد الايدي .
لا تحزن ولا تقطب حاجبيك .
ليس شيئا جديدا في هذه الحياة ان نموت .
وأن نعيش ، بالطبع ليس بالشيء الجديد ايضا .

ولكن روسيا كانت قد وجدت الشيء الجديد الذي ستعيش مـن أجـله . كانت قد اختارت مشروعها ، الذي ستدافع عنه ضد الموت وفي قلب الموت وحتى الموت . وقد أجابت روسيا السوفياتية على لسان شاعرها مايكوفسكي ، الذي كان سيكرر نفس المـأساة بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا :

أن نموت في هذه الحياة ،
ليس بالامر الصعب .
الاكثر صعوبـة ،
هو أن نصنع الحياة .

* * *

ان مايثير الدهشة في تاريخ روسيا ، ان أروع شعرائها كـانوا ينتهون في عز شبابهم وفي قمة تفتحهم الشعري ، منتحرين او مقاتلين في معركـة انتحـــارية .

محمد كامل عارف

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كـولن ويلسون

ضيَاع في سُوهو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف « اللامنتمي » تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطـوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدة هي سر أبداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميـــع لغات العالم .

وقد حصلت « دار الاداب » على حقوق ترجمـة هذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذه الرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصـــدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

الثمن ٤ ليرات لبنانية .

منشورات دار الآداب